السيرة في أدب الحرب: رواية "الرفاعي" لجمال الغيطاني نموذجًا

شاهندة محمد زكريا إبراهيم الباجوري

مستخلص

تسعى هذه الدراسة للكشف عن تجليات السيرة في نصوص أدب الحرب، وكيف تتبدى سماتها في الخطاب السردي، وذلك من خلال رواية "الرفاعي" للكاتب جمال الغيطاني.

وقد وقع الاختيار على رواية "الرفاعي" كونها نموذجًا تتجسد فيه سمات السيرة الغيرية لبطل من أبطال أكتوبر، ضحى بحياته من أجل استرداد الأرض وتحريرها في حرب العاشر من رمضان 1973، فاستحق أن تُروى قصته الحقيقية، وأن تُسْتَحْضَر وتُشَيَّد على المستوى القولي الملفوظ والمكتوب، فامتزجت الرؤية الواقعية برؤية السيرة الغيرية القائمة على رصد بطولة مقاتل آثر تحرير سيناء على حياته، فتماهت ملامحه مع ملامح الوطن ليتولد النصر.

تتناول الدراسة تجليات السيرة في النص الأدبي عبر مستويين؛ المستوى الأول: البنية الفنية للحدث الروائي، المستوى الثاني: بناء الشخصيات الروائية، وعناصر السيرة الغيرية. كما تقترح مفهومًا مغايرًا لأدب الحرب وفقًا للزمن الخارجي؛ أي زمن المغامرة.

وتتعرض الدراسة لإشكالية تأثير تيمة الحرب على البنية السردية للرواية السيرغيرية، وتجيب عن تساؤلات: كيف استطاع الروائي العربي صياغة هذه التيمة على مستوى الحدث الفني المحاكي للواقع، وبناء الشخصيات الروائية؟ وكيف تجلت هذه العناصر في نصوص أدب الحرب؟

الكلمات المفتاحية: أدب الحرب– السيرة الغيرية– الرفاعي– جمال الغيطاني –حرب أكتوبر 1973–المجموعة 39 قتال.

مقدمة

الأدب والمعركة وجهان أساسيان لكفاح أي أمة، وعنصران مؤثران في تحقيق انتصاراتها، لأن الأدب أداة ثقافية وإنسانية من أدوات الحرب. كما أنه سلاح اللاعنف – من وجهة نظر الدراسة، ومن هنا كان أدب الحرب.

فأدب الحرب هو الأدب الذي يرصد ويوثق الحروب التي مرت بها الأوطان، ويسير جنبًا إلى جنب مع التاريخ، كما يرصد ويحلل شخصيات الحرب الواقعية التي نقلها الأدب في أنواعه المختلفة، وتصاعد البناء الدرامي لهم، ولمَّا كانت الحروب والانتصارات تبنى على سواعد الرجال والأبطال، فقد انعكس ذلك جليًّا على الأدب، لا سيما أدب الحرب الذي رصد تلك البطولات.

وعندما تأثر كتاب نصوص أدب الحرب بحروب وقضايا أوطانهم، وراحوا يرصدون ويوثقون تلك الفترات، اتخذ دورهم النقدي الواقعي دربًا آخر للبحث عن الحرية والاستقلال؛ فأبدعوا في نصوصهم الأدبية مستقين أفكارهم وتصوراتهم من البيئة والواقع المحيط بهم، ومِن أنفسهم وتجاربهم الذاتية باعتبارهم أفرادًا فِي مُجتمع تلك الفترات الزَّمنية، كما تأثروا أيضًا ببطولات وأمجاد المقاتلين الذين ضحوا بأنفسهم فداء لتراب أوطانهم، فضربوا لنا أعظم الأمثلة والملاحم التي حفرت في تاريخ الأمم، فنسج منها كتاب أدب الحرب مادة أدبية خصبة، أصبحت علامة من علامات أدب الحروب ليسير جنبًا إلى جنب مع التاريخ. ومن هذه الكتابات رواية "الرفاعي" التي اختارتها الدراسة لتحليلها، وبيان سمات السيرة في خطابها السردي.

تفرق الدراسة بين السيرة بنوعيها: السيرة الذاتية والسيرة الغيرية، وتستقرئ أن "الرفاعي" هي سيرة غيرية تناول فيها الكاتب جمال الغيطاني حياة وبطولة مقاتل من مقاتلي الجيش المصري إبان حرب 6أكتوبر 1973، وهو "أمير الشهداء" العقيد أ.ح إبراهيم الرفاعي– قائد المجموعة (39 قتال صاعقة)، الذي كان أبًا وأيقونة لكل جندي في الجيش المصري منذ نكسة 5 يونيو 1967، مرورًا بحرب الاستنزاف التي استمرت ستة أعوام حتى نصر أكتوبر 1973، فأدى أدوارًا بطولية ساهمت في كسب المعركة حتى استشهد يوم 19 أكتوبر 1973، في أثناء مهمة أسندت إليه في ثغرة الدفراسوار؛ فنجحت المهمة واستشهد القائد، فكان هذا الزمن الخارجي الفعلي للقصة أو ما يطلق عليه (زمن المغامرة).

وعلى الرغم من كون الرواية سيرة غيرية لبطل حقيقي، فإنها تحمل في طياتها سيرة كل جندي وهب نفسه للدفاع عن أرضه، فقام المؤلف بكتابة ورصد سيرة بطل، استشهد وضحى بنفسه فداءً للوطن، فصار رمزًا وأيقونة سيظل التاريخ شاهدًا عليها.

وسعت الدراسة للإجابة عن عدة تساؤلات، أهمها: ما الدور الذي يقوم به الأدب في أثناء الحروب وبعدها؟ وكيف تنعكس تيمة الحروب على الأدب العربي؟ وكيف تراءى دور البطل المقاتل في الأدب؟ وكيف تصاعد البناء الدرامي للخطاب السردي المعبر عن القصة الواقعية؟ وكيف تجلت عناصر السيرة في الشخصية الروائية التي تخوض حرب استرداد الأرض من خلال شخصية (إبراهيم الرفاعي) في رواية "الرفاعي" لجمال الغيطاني؟

اعتمدت الدراسة في تحليلها على المنهج البنيوي، وتحديدًا (تطبيقات جيرارجنيت على البنيوية)[243]، حيث إن السمات الفنية التي نريد أن نرصدها بين الأعمال موضوع الدراسة والتي سنقوم بتحليلها هي سمات تتعلق بالشكل والبناء"[244].

تنقسم هذه الدراسة إلى مقدمة، وثلاثة مباحث، وخاتمة.

<u>المبحث الأول، فن السيرة:</u>

تتعدد أشكال السيرة في الأدب، وتتعدد التعريفات تبعًا للنوع والشكل، ولكن يمكننا أن نقسمها إلى قسمين:

- **السيرة الذاتية:** هي ترجمة وتتبع حياة إنسان، ومراحل عثراته، فتتعلق بالواقع، ويكون شرط تحقق السيرة الذاتية هو وجود الميثاق الأوتوبيوغرافي الذي وضعه فيليب ليجون "التطابق بين المؤلف والسارد والشخصية"[245]، فالمعيار الأساسي بها أن يحكي السارد قصته،

---

[243] جيرار جنيت، خطاب الحكاية، ترجمة محمد المعتصم وآخرين، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ط2، 1997.

[244] سيزا قاسم، بناء الرواية، دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ، القاهرة، مكتبة الأسرة، 2004، ص17.

[245] فيليب لوجون، السيرة الذاتية؛ الميثاق والتاريخ الأدبي، ت: عمر حلي، بيروت، المركز الثقافي العربي، ط1، 1994، ص24.

"وفي التراث الشعبي هي ترجمة حياة فرد أو ترجمة حياة جماعة، وسرد استرجاعي لأحداث من الذاكرة، تواجه كاتبها بمشكلة بالغة الخصوصية في أن موضوع الكتابة هو ذاته"[246].

في حين أنَّ روَايَة السيرة الذاتية تحمل في طياتها جزءًا من سيرة كاتبها، وغالبًا ما ظهرت شخصية الكاتب في أعماله غير السيرية لمجرد سيطرة العقل الباطن على وعي الكاتب وقت كتابة العمل، بعكس السيرة التي تتمثل في وقائع من حياة الكاتب نفسه.

وهنا ظهر التَّماسُ بين السيرة الذاتية، ورواية السيرة الذاتية، فهناك خيط رفيع بين ما هو ذاتي، وما هو ناتج عن التلاقح والتفاعل مع ظروف المجتمع، وقد جعل ذلك رواية السيرة الذاتية أكثر رحابة وتحررًا من السيرة الذاتية، مما أدى إلى كثرة عددها مقارنة بالسيرة الذاتية.

ويرى جابر عصفور أنَّ رواية السيرة الذاتية هي "التي تنطوي على حياة كاتبها بعضها أو كلها، وهذا يفسر زيادة عدد روايات السيرة الذاتية مقارنة بالسيرة الذاتية"[247]. يتفق معه سيد البحراوي ويضيف أن "رواية الترجمة الذاتية لا تشترط أن يعترف المؤلف بأن عمله يجسد جزءًا من حياته، وإن كانت هناك إشارات خاصة بالزمان والمكان والتواريخ والأماكن والأسماء التي قد تربطه معها علاقات خاصة"[248].

ويشير يحيى إبراهيم إلى أنَّ كاتب رواية السيرة الذاتية كان لزامًا عليه أن يفصح عن غايته، حتى يزيل الالتباس عند القارئ ولا يتلقاها على أنها رواية، بل يتلقاها على أنها التاريخ الحقيقي لكاتبها، لكنه لم يجد واحدًا من الكتاب الذين اختاروا قالب الرِّوَايَة لكتابة سيرهم الذاتية قد اعترف

---

[246] ممدوح النابي، رواية السيرة الذاتية، القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة،2009، ص79، وهي في الأصل رسالة دكتوراة، إشراف د. طه وادى، د. أحمد عبد العزيز – قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ثم خلف الأول بعد رحيله د. حسين حمودة، ص69.

[247] انظر جابر عصفور، زمن الرواية، القاهرة، دار المدى للثقافة والنشر، 1999، ص125.

[248] سيد البحراوي، النقاد يحددون مواصفات كتابة السيرة الذاتية، حوار أجراه: حسن عبد الموجود، أخبار الأدب، 30 يوليو 2003، ص6.

بذلك، بل حاول الكثير منهم نفي ارتباط هذه الأعمال بحياتهم الشخصية، ويعتبرونها مصادر تنويرية تكميلية، منهم توفيق الحكيم"[249].

- **أما السيرة الغيرية:** فهي الجنس الأدبي الذي يكتبه البعض عن غيرهم من الأعلام والشخصيات المؤثرة، عرفها البعض على أنها "بحث يعرض فيه الكاتب حياة أحد المشاهير، فيسرد في صفحاته حياة صاحب السيرة أو الترجمة، ويفصل المنجزات التي حققها، وأدت إلى ذيوع شهرته، وأهلته لأن يكون موضوع دراسة"[250].

"وتعد أقدم زمنًا من السيرة الذاتية، لأنها برزت مع التأريخ والأدب، فمنذ وجود الحضارات، جعل الرجال يؤلفون فيها، ويتكسبون في بلاط الحكام والسلاطين. فكانوا يكتبون ما يجري في زمنهم من تطور، فكتبوا للملوك والسلاطين، وللحروب والمحاربين، وإن معظم هذه الأعمال تشتمل تحت مفهوم السيرة الغيرية"[251].

وقياسًا على ما سبق، نستقرئ أن رواية "الرفاعي" تندرج تحت السيرة الغيرية؛ فالرفاعي لم يكتب عن نفسه حتى تكون سيرة ذاتية، لكن الكاتب جمال الغيطاني هو من كتب سيرة الشهيد الرفاعي، وكان شاهدًا عليها، فتناول سيرة محارب يستحق أن تحكى قصته ليكون قدوة يحتذى بها في الخطاب السردي والقصة الحقيقية، وكان الراوي العليم نائبًا عنه.

المبحث الثاني، أدب الحرب:

طالما كان الأدب ولا سيما الرِّوَايَة مرآةً للواقع، ولمَّا كان الواقع يعج بالحروب التقليدية والفكرية وحروب الجيل الرابع والخامس والسادس؛ فقد انعكس ذلك على الأدب وظهر أدب الحرب، فلم يكتف الأدباء برصد الواقع، بل اتخذوه أداةً لشحذ الهمم وتحريض الشعوب والحكومات على محاربة الاستعمار واسترداد الكرامة والأرض، وصد الظلم والفساد السياسي والمجتمعي.

---

[249] انظر يحيى إبراهيم، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، مكتبة النهضة المصرية، 1975، ص426.

[250] عبد اللطيف الحديدي، فن السيرة بين الذاتية والغيرية في ضوء النقد الحديث، القاهرة، دار السعادة ط1996،1، ص76.

[251] عبد المجيد البغدادي، دراسة بعنوان: فن السيرة الذاتية وأنواعها في الأدب العربي، مجلة القسم العربي، جامعة بنجاب، باكستان، العدد الثالث والعشرون،2016، ص191.

يُلاحظ أن أدب الحرب يختلف فيه المُسمى باختلاف البيئة الثقافية، فهناك من يسميه الأدب الملحمي، أو شعر البطولة والحماسة في الأدب القديم، وهناك من يطلق عليه الأدب البطولي كما في السيرة الهلالية، أو أدب المقاومة وأدب المعركة الذي كان شائعًا في مصر قبل نكسة 67، ثم بدأ يظهر مصطلح أدب الحرب بعد هذا الزمن.

عرَّف البعض أدب الحرب على أنه الأدب الذي يُتخذ فيه منحنى الدفاع عن الذات والأرض، والدفاع عن اللغة والأدب ذاته، أو القص الذي يتناول قصص البطولة من وجهة نظر الكاتب، أو السرد الذي يتناول موضوعات مثيرة في أثناء الذهاب للمعركة أو خلالها أو بعد الانتهاء منها، أو هو الذي تبنى فيه الكاتب مبدأ الدفاع عن الحياة في مواجهة الهلاك أو أضرار الحرب[252].

أثناء البحث عما كتب في الحرب، لاحظت الدراسة نوعًا آخر من أدب الحرب، خاصًا بما كتبه الغرب عن الحروب العربية، وهذا النوع لم يكن يتسم بالحيادية أو الإنصاف؛ ولعلنا واهمون إذا تخيلنا أن الغرب قد تعاطف مع القضية الفلسطينية، أو أيدوها تأييدًا مطلقًا، أو أنهم عرضوا على قرائهم الصورة كما يعرفها العرب، فغالبًا ما يفرض الكُتاب مواقفهم الأيديولوجية الشخصية على ما يكتبون، وإذا تتبعنا ما كتبه فيرناندو.ب. دي كاميرا في كتابه "أطول صيف في تاريخ مصر" نجده قد وصف الأعمال التي قام بها الفدائيون بـ"القسوة واللاإنسانية" في "أراضي إسرائيل"، ويصف الفدائيين بأنهم "إرهابيون"، وأن رد فعل سكان الكوبيتز الصهاينة" إنساني جدًّا" إزاء الاعتداءات "الوحشية غير المبررة" من الجانب الفلسطيني[253].وهذه النظرة الغربية غير الحيادية موجودة حتى الآن ضد الشعب الفلسطيني الذي يمارَس ضده كل أنواع الظلم والانتهاك من قبل قوى استعمارية تريد أن تطرده من أرضه، فإما التهجير أو القتل.

تقترح الدراسة مفهومًا لأدب الحرب تبعًا للزمن:

إما أنه الأدب الذي كُتب في زمن الحرب نفسه، مثل رواية "الرفاعي" التي كتبها جمال الغيطاني عام 1976 وعايش فيها حرب أكتوبر، أو أنه الأدب الذي كُتب عقب الحروب، بعد أن استقرت

---

252 انظر السيد نجم، أدب الحرب، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، 1995، ص146، ص148.

253 انظر، أحمد عبد العزيز، قضايا المشرق العربي عند الشعراء الإسبان، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1989، ص56.

الأحداث واتضحت النتائج، أو الأدب الذي يتنبأ بالحرب لاستعادة الحق المسلوب، ويشجع الساسة ومتخذي القرار، وهذا النوع شائع في الثورات كرواية "القاهرة الجديدة" التي تناولت قضية فساد الملك وحاشيته، ودعت لقيام ثورة 1952، وهذا ينبثق منه تساؤل: كيف كان الأدب نفسه محفزًا لقيام الحرب، واسترداد الأرض؟

المبحث الثالث، تجليات السيرة الغيرية في رواية "الرفاعي":

تتحدث رواية "الرفاعي"[254] عن الشهيد البطل العميد أ.ح إبراهيم الرفاعي "أمير الشهداء"، قائد المجموعة (39–قتال صاعقة)، وبطولته واستشهاده في حرب أكتوبر المجيدة، وقد كتبها جمال الغيطاني عام 1976، وعايشها بصفته محررًا عسكريًّا لجريدة الأخبار، فكان شاهدًا على الأحداث من موقعه على الجبهة، ولذا يندرج هذا العمل الأدبي تحت نوع الأدب الذي كُتب في زمن الحرب نفسه، وعايش زمنها.

تناولت "الرفاعي" السيرة الغيرية للبطل العقيد أ. ح إبراهيم الرفاعي، بطل من أبطال الجيش المصري الذي استشهد مقبلًا غير مدبر في التاسع عشر من أكتوبر ١٩٧٣ بعد تنفيذ المهمة التي كلف بها يوم السادس من أكتوبر ١٩٧٣، وهي تفجير منطقة بلاعيم النفطية الإسرائيلية وحرمهم من احتياطي البترول اللازم للمعركة. فساهمت في النصر المجيد، وظل يقاتل على الجبهة حتى كلف بمهمة في تصفية ثغرة الدفرسوار، فاستشهد بعدما أدى واجبه، ونجح مع أفراد مجموعته في تأدية مهمته.

تتبدى سمات السيرة الغيرية في رواية "الرفاعي" عبر عدة مستويات:

البنية الفنية للحدث الروائي، بناء الشخصيات الروائية وعناصر السيرة الغيرية (التكوين–النشور)، بنية الزمن الفني، بنية المكان الروائي، الصيغة السردية وزاوية الرؤية وما تتضمنه من: صيغة الحكاية، السرد المتقطع، المسافة، التعددية الصيغية، خطاب الأقوال، التبئير، المنظور السردي، مفردات السرد.

[254] جمال الغيطاني، الأعمال الكاملة، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، المجلد الثاني، 1991.

البنية الفنية للحدث الروائي:

انقسم الخطاب السردي في "الرفاعي" إلى ثلاثة أقسام؛ العد التنازلي للشهادة، ومرحلة التكوين التي روى فيها السارد السيرة الغيرية للرفاعي، وكيف سميت مجموعته بـ"39 قتال"، وكيف استشهد البطل؟ والجزء الإنساني من الحرب، كما رصدت كيف كان يتعامل مع جنوده؟ وسر ارتباطهم بقائدهم "لابد ألا تأخذهم دوامة التدريبات والعمليات، إن من يواجهون الموت معًا، يجب أن يعيشوا حياتهم معًا" صـ451. والنشور التي تعد القسم الثالث، حيث يتناول الكاتب فيها حياة الزوجة "السيدة نادية" وعائلته بعد موته، كما يسلط الضوء على علاقته بأسرته وجنوده، وقصة كل فرد فيهم، وماذا حدث معهم لحظة استشهاده، وكيف تحولت حيواتهم بعد وفاته؟

يتراءى للدراسة أن الغيطاني قد اختار أن يكون عنوان القسم الأول من روايته؛ العد التنازلي، اليوم الثالث عشر 6 أكتوبر 1973 "ليشير به إلى اليوم الذي بدأ فيه العد التنازلي لاستشهاد الرفاعي بعد 13 يومًا من تلك اللحظة، ويثير ذلك تساؤلًا: هل حياة البشر الطبيعية تمثل عدًّا تصاعديًّا، أم تنازليًّا، هل يبدأ عمر الإنسان من يوم، ثم يكبر وتتصاعد السنون حتى يموت، أم أنه يصبح عدًّا تنازليًّا عندما يعي الإنسان وقت موته، وهذا ما لا يحدث أبدًا؟ فقد استخدم الغيطاني مصطلح العد التنازلي لأنَّه كان يعلم بموعد استشهاد الرفاعي في أثناء كتابته الرواية، فضلا عن كون الحدث جللًا. فقد استخدم تلك العبارة لتهيئة المتلقي ليوم ومشهد استشهاد بطل السيرة الغيرية، كما كان الزمن بالنسبة للرفاعي نفسه عدًّا عكسيًّا من الأكبر إلى اليوم صفر؛ يوم استشهاده، والدليل هو العناوين الزمنية التي لجأ إليها "اليوم الثاني عشر 7 أكتوبر 1973... اليوم الحادي عشر 8 أكتوبر 1973 ...اليوم الخامس 14 أكتوبر1973.. اليوم الثاني..18 أكتوبر 1973 ..الجمعة التاسع عشر من أكتوبر".

يبدأ السرد بمشهد للبطل الرفاعي وهو في رحلته التي اعتادها خلال سنوات حرب الاستنزاف من بيته بالدقي إلى السويس في الكيلو 4.5، ثم طريق الإسماعيلية المحاذي لطريق مطار القاهرة، حتى بطن الصحراء الشرقية، وهناك يكشف الخطاب للمتلقي عن جنود الرفاعي، وأفراد كتيبته "حدة العقيد علاء التي توحي بأنه سيشترك فورًا... أبو الفضل الصعيدي وملامحه التي تعكس إحساسًا بالانتظار، مصطفى المتأهب دائمًا لتلقي الأمر، أبو الحسن وشبح ابتسامة دائمة قد تظهر في أي

لحظة، إن الرفاعي يرى تلك الروابط الخفية، تشد كلًّا منهم إلى الآخر، قبل العبور لملاقاة الحرب" صـ368، 367.

ثم يكشف السرد عن مهمة البطل ومجموعته 39 قتال يوم 7، 8، 9، وحتى يوم 14 أكتوبر في السيطرة على تدمير المنشآت البترولية في بلاعيم، حيث إن منطقة بلاعيم كانت المركز الرئيسي للمنشآت البترولية التي أقامها العدو الصهيوني، ومن هنا كان لا بدَّ من تدمير هذه المنشآت لحرمان العدو من الوقود الذى يستخدمه لمعداته المشاركة في الحرب، فصدرت الأوامر للبطل الرفاعي ومجموعته من رجال الصاعقة بتدمير تلك المنطقة "قال إن اليوم يومهم، والسنوات التي انقضت ما هي إلا مقدمة لهذا اليوم، قال إن الشغل الحقيقي سيبدأ اليوم، قال لابد من إلحاق أكبر قدر من الخسائر بالعدو، قال إن خطة بلاعيم مصدق عليها من القيادة، يجب تحويل كل شبر إلى جهنم" صـ376.

ويتناول السرد وصفًا تفصيليًّا لما حدث في المعركة التي عايشها الكاتب جمال الغيطاني بنفسه، وما يحدث على أرض الواقع قبل الشروع في تنفيذ أي مهمة من مهام الجيش المصري، وهو عمل ماكيت يحاكي فضاء العملية، ووضع اللمسات النهائية كجراح الأعصاب، فيقارن الراوي العليم بين الطبيب في مكان عمله، والجندي في معركته، فالأول يداوي الجراح المحدودة، والثاني يعالج جراح التاريخ، وكان الرفاعي خير مثال على ذلك.

كما سلط السرد الضوء على خطة الخداع الاستراتيجي، وتمويه العدو التي كانت عاملًا رئيسيًّا في كسب الحرب "يتقدم الرفاعي باتجاه ثلاث طائرات هليوكوبتر، أزيح عن كل منهما غطاء التمويه، يصافح الطيارين" صـ379، وأيضًا "في الليل ينحاز إلى جانبه عنصر المفاجأة" صـ399.

يصطحب الغيطاني القارئ في صفحات عمله الأدبي إلى منطقة بلاعيم النفطية، فيشعر القارئ بأنه فرد من أفراد مجموعة الرفاعي، ويعيش معه أجواء المعركة بكل جوانبها، فلم يغفل السرد عن أي وصف أو تفصيلة تجعل المتلقي في قلب الأحداث، وقد ذكر الكاتب بنفسه سبب ذلك الإسهاب في الوصف والسرد بأن ما يقوم به هؤلاء الأبطال سيتم اختزاله في النهاية ببيان عسكري، فجعل المحرر العسكري مؤرخًا يذكر كل التفاصيل والمشاعر والوثائق التاريخية، فكانت هذه هي إحدى رسائل أدب الحرب التبليغية "بعد ربع ساعة سيجتمع الناس حول موائد الفطار، كل ما يقومون به

الآن وما سيمرون به سيصبح بيانًا عسكريًّا، إذا يقرأ عن المعارك التي خاضها الآخرون لا يخدعه اختزال السطور لما جرى، يجسد ألم الجراح ولحظة الاشتباك، والصيحات الليلية، والرعب الإنساني" صـ381.

ومن رسالة تبليغية إلى أخرى ينتقل الكاتب بسهولة ويسر، فقد خلص السارد الذي ينوب عن المؤلف إلى أن الحرب ماهي إلا شظية ينجح الجندي في إدخالها إلى جسد العدو، سواء صدرت عن طلقة مسدس أو قنبلة مدفع أو دانة دبابة أو صاروخ، الطرق تتعدد والموت واحد.

وباكتمال سرد الكاتب لمعركة بلاعيم النفطية يعلن عن نجاحها "تنفجر الصواريخ بغزارة، كأن الدنيا تمطر شظايا ولهبا بالمقلوب، من الأرض على السماء" صـ386.

كما يشير السارد إلى درس عسكري يرصده في عمله الأدبي وهو ضرورة الاستفادة والتعلم دومًا حتى ولو من العدو، فيجب أن نتعلم الأشياء الجيدة من العدو الذي نقاتله، وألا نترك له فرصة معرفة الجيد في جيشنا.

ينتقل الخطاب الحكائي بعد ذلك إلى اليوم الثاني.. يوم 18 أكتوبر 1973؛ قبل الاستشهاد، فيشير إلى المهمة التي استشهد فيها عندما وصلته الأوامر "تمام.. علم يا أفندم". وجاء يوم الجمعة 19 أكتوبر؛ يوم الشهادة التي انتهى عندها العد التنازلي الذي بدأه الكاتب منذ السطر الأول في الرواية.

وهنا ألقى الكاتب قرار الشهيد الرفاعي بأن يقوم هو باستطلاع العملية المكلف بها بنفسه "يقول الرفاعي بهدوء إن مهمة الاستطلاع ستتم كما حدد هو" صـ419، ولم يذكر صراحة كيف استشهد، وصف فقط ذبول الحياة من حوله بموته "يناوله مصطفى الدانة، يرتفع غبار في المعركة، تتواصل أصوات الرشاشات سريعة، لاهثة كماكينات الخياطة، وفي الفراغ ترف دانة هاون كرمش العين... وبعيدًا يتوارى النهار الأزرق الشاحب" صـ423، فأبى الكاتب أن يحكي مشهد الإصابة والسقوط الآن وأجلها لقسم الرواية الثالث ليرويها لنا من خلال رجاله.

ينتقل الخطاب السردي إلى القسم الثاني من الرواية؛ مرحلة التكوين التي تتجسد فيها تقنيات السيرة الغيرية، ليس للبطل وحسب، بل لكل من يحيطون به، وأيضًا تكوين المجموعة 39 قتال صاعقة.

تبدأ هذه المرحلة باسترجاع لمشاهد الذل والانكسار والقتل الوحشي، وعدم احترام مواثيق معاملة الأسرى، فيأخذ السرد المتلقي لعام 1967، وتحديدًا يوم الحادي عشر من يونية عندما رأى الضابط وسام عباس بعدسته المكبرة كيف امتهن الجنود الإسرائيليون الأسرى المصريين في 67، وقتلوهم بغير آدمية. ثم أنباء عن تقدم لواء إسرائيلي على الطريق الساحلي بمحاذاة البحر المتوسط. وترشيح الضابط العقيد أركان حرب إبراهيم الرفاعي لمواجهتهم، فيتبين للمتلقي أن فصل التكوين يتحدث أيضًا عن تكوين مجموعة الرفاعي؛ المجموعة "39 قتال" "قال ضابط كبير برتبة لواء ردًّا على تساؤل حول من سيقوم بالمهمة، أنه يعرف ضابطًا شجاعًا يلح عليه بالقيام بعمل فدائي ضد العدو المتقدم على المحاور في سيناء، حصل على ترقيتين استثنائيتين، ويحمل وسام النجمة العسكرية، واسمه معروف لكافة وحدات الصاعقة إذ إنه من جيل المعلمين الأوائل بها" (ص429).

يسير الخطاب السردي في خطين متوازيين في أثناء حرب الاستنزاف:

الخط الأول؛ إعادة بناء الجيش وبث الثقة من جديد "سنقوم من جديد"، وكيف استطاعت مصر استجماع شتات نفسها، والنهوض للثأر وإعادة الأرض والاعتبار، وترميم الانكسار الذي خلفته الهزيمة "ألم يرها الرفاعي في كل ما يحيط به، ألم ير الشوارع منكفئة، ولولا جهد من أعمدة الخرسانة لوقعت فوق الأرض من الخجل، ألم تتحول سماء يونيو الليلة إلى وخزات تأتي بالهم، وتقتات منها البلايا؟" (ص433).

الخط الثاني؛ استراتيجية تكوين المجموعة "39 قتال"، وكيف انتقى الرفاعي أبطال مجموعته بعناية شديدة، وكيف ضم خيرة المقاتلين إليه، مثل الرائد بحري وسام حافظ، والمساعد أبو الحسن، وجندي من الصاعقة اسمه أبو الفضل، وجندي آخر اسمه جرجاوي، وزيتون، وأمرت القيادة العسكرية أن تحمل المجموعة اسمًا، فاختاره الرفاعي بأن يكون وفقًا لعدد العمليات التي قد أتمتها المجموعة حينذاك "قال الرفاعي: لقد قمنا بتسع وثلاثين عملية ضد العدو حتى الآن، أقترح أن نسميها (المجموعة 39 قتال)" صـ469.

ثم يتتبع السرد العملية الأولى للمجموعة 39 قتال خلال حرب الاستنزاف، وهي الحصول على ثلاثة صواريخ من العدو الإسرائيلي، وتتوالى العمليات حتى يصل الكاتب بالمتلقي إلى العملية الأخيرة التي استشهد فيها الرفاعي، فيبدأ بتتبع المبنى الحكائي الذي وصل بالقارئ إلى يوم التاسع عشر من رمضان؛ أي بعد مرور ثلاثة عشر يومًا على يوم نصر السادس من أكتوبر، فيتوقف السرد عنده من منظور العقيد علاء الذي اختاره المؤلف والراوي العليم لتتضح لنا مهمة استشهاده، وهي التصدي لدبابات العدو الإسرائيلي عند ثغرة الدفرسوار، ومنعهم من العبور جنوب الإسماعيلية. وإدراكهم، منذ اللحظة الأولى، صعوبة المهمة" في الثانية عشر والربع جاء صوت مستنجدًا "أنا راجع ومعي رجلنا..الكلاب يريدون أن ينهشوه راقدًا، بعد أن عجزوا عن نهشه مقاتلًا.. يا رجال تعالوا نرجع بالرفاعي" صـ475. وهنا باغت السرد المتلقي مرة أخرى باستشهاد الرفاعي، مثلما باغته في الجزء الأول، بدون الخوض في تفاصيل استشهاده الدقيقة، فقط صرح الراوي العليم بالمهمة العسكرية، لكنه لم يتطرق إلى ملابسات استشهاده، وأحالها إلى الجزء الثالث والأخير.

ينتقل السرد إلى القسم الثالث والأخير من الرواية؛ مرحلة النشور. وهي مرحلة ما بعد الموت، والتي تكتمل فيها عناصر السيرة الغيرية للبطل الحربي.

فتحكي عن مصير كل من ارتبط بالرفاعي بعد استشهاده بدءًا من زوجته وطفليه، وحتى جنوده وعائلته الثانية في الميدان، فاستطاع بذلك الكاتب جمال الغيطاني أن يمد في عمر الرفاعي عندما تتبع حيوات من يحبهم ويقتدون به، لا سيما أنه ظل على علاقة متصلة معهم بعد انتهاء الحرب وعودتهم من الميدان. فيعد هذا الجزء مشحونًا بالشخصيات السردية، لأنه يتقاطع معهم ويمثلهم، وفي هذه المرحلة تكتمل السيرة الغيرية للبطل الحربي، حينما أظهر السرد الرفاعي القائد، والرفاعي الإنسان في عيون تلامذته، لتتجسد معاناتهم بعد رحيل أيقونتهم.

تبدأ مرحلة النشور من عند نادية الرفاعي؛ الزوجة المحبة، والأم الرؤوم التى وصفها الراوي عند لحظة استقبالها خبر استشهاد حبيبها، واسترجع معها الحياة التي لم تلحق أن تعيشها معه كاملة، وألقى الراوي الضوء على يوم السادس من أكتوبر من منظورها السردي، والذي رأت فيه الكثير من طائرات الهيلوكوبتر تحلق في سماء مصر، لكنها لم تدرِ في أي واحدة منها يطير بطلها، وحتى جاءها الخبر "لم يفارقها يقين بأنه يراها ويطوف بالبيت .. ولأنها استجابت له، فلم تبك كما طلب

منها..." صـ479. وفي هذه المرحلة تسترجع نادية خصال الرفاعي الإنسانية؛ بعيدًا عن ميادين القتال، فهي لم تبك في أول يوم كما طلب منها، لكنها بكته العمر كله، وظلت على مدار سنوات عمرها حتى لحقت به تبكيه كل يوم يوافق التاسع عشر من شهر أكتوبر، ويمتد البكاء لشهور السنة كلها.

واستمر الخطاب السردي في استرجاع سنوات العمر التي عاشوها معًا قبل استشهاده، ولحظات الحب والمودة والسكينة التي عاشت على أطلالها زوجة الشهيد، وكيف كانت هناك عقبات تعيق زواجهما "زواجي منك معركة، لا يمكن أن أخسرها"، فانتصر فيها وتزوجها.

كما كشف السرد عن رسالته الأخيرة لها يوم أن خرج للقتال في السادس من أكتوبر "عندما يصلك خطابي هذا أكون ماضيًا لقتال العدو، قولي لمن تلتقين به إن في مصر رجالًا قادرين على هزيمة العدو" صـ483. وبالفعل وصلت رسالته لمصر كلها بعد رحيله، وتأكد الشعب أن الجيش به رجال استردوا الأرض، وثأروا للكرامة، وضحوا بدمائهم من أجل تراب الوطن.

ثم ينتقل السرد من نادية إلى العقيد علاء، الساعد الأيمن للرفاعي؛ الأخ والصديق والطبيب، فما بين اليقظة والنوم تتهاوى الموجودات، تلين اليوابس.. ويتعلق جندي بعربة نقل، وتبدأ قصة الكفاح من أجل الوطن. ويتساءل علاء في نفسه: أين الرفاعي؟ فتختصر هذه العبارة كل الألم والمعاناة النفسية التي تدور بداخله بعد استشهاد قائده ومعلمه. فتراءى له الموت مجسدًا في عزرائيل "يدرك أن حياته انقسمت منذ الليلة إلى قسمين؛ الأول عاشه وولى، كان مفعمًا بالحركة والقتال والرفاعي والزملاء...والثاني بدأ؛ المجهول" صـ491، فقد أدرك أن حياته بعد الرفاعي أصبحت مجهولًا.

وقد آثر السرد أن يجعل المشهد الوصفي لاستشهاد البطل إبراهيم الرفاعي من المنظور السردي لعلاء الذي كان أقرب شخص للشهيد لحظة استشهاده، فضلًا عن كونه طبيب المجموعة، وذلك لضمان دقة نقل الحدث الأصعب والأبرز في الرواية "في ظهر الجمعة التاسع عشر من أكتوبر، انحنى بأذنه فوق الصدر العريض الذي احتوى البلد ومن فيها سنين طويلة.. عبثًا حاول التقاط أي إشارة مرسلة من القلب... في مستشفى النحاسين قال الأطباء إن الشظية نفذت تمامًا إلى القلب، سلكت طريقًا أدق من مشرط الطبيب لو سدد إلى القلب، قالوا إنه لم يتألم" صـ492.

ثم يستطرد السرد في لحظات الاستشهاد ورجوع المجموعة بالجثمان الطاهر، فلم يبك علاء، لكنه ومجموعته قاموا بحماية الجسد حتى وصل الطيران، بكى عبد المؤمن صارخًا، ولام نفسه لأن الرفاعي تقدم بدلًا منه، ورفض أن يكون عبد المؤمن في استطلاع العملية، وكيف يجعله وهو قائد مصري لا يدفع بأفراد مجموعته في المقدمة، بل يتصدر هو ليواجه الخطر بقلب أسد جسور.

ثم ينتقل السرد مرة أخرى إلى "أبو الفضل الصعيدي" الذي رحل مشتتا، وراح يجوب كل المدن المصرية، ويحكي لهم عن الرفاعي "فقال لهم إنه من الناس الذين لا يجيئون مرتين في الزمن الواحد، جاء إلى الدنيا، وقضى عددًا محدودًا من السنين، وحمل البلد وهمومها فوق رأسه، وحارب من أجل الناس الذين يعرفهم، والذين لا يعرفهم، والذين مضوا والذين لم يمضوا، والذين بقوا والذين لم يأتوا، قال إنه الآن طائر بين الناس، وأنه علا كالصقر، ولم يعد فوق الأرض إلى حين" صـ495. فكان يردد دومًا أن الرفاعي سيعود في أحد الأيام، وينظر إلى الأضرحة التي بناها له أبو الفضل، ويقول: شاء أحد رجالي ألا يضيع دمنا هدرًا، فيرد عليه أبو الفضل: كان سكنه في العمر، وضريحه في قلبي.

كما كشف السرد عن دور المرأة المصرية في المعركة، والذي ينطبق على كل الحروب التي خاضتها مصر، وكيف كانت الأم والأب في المنزل، والسند للرجل في الجبهة، وقد اختار الكاتب السيدة نادية؛ زوجة الرفاعي وحبيبته، لتكون المثال الواقعي على هذا الدور "عندما خرج يوم السادس من أكتوبر، كتب إليها رسالة موجزة: عندما يصلك خطابي هذا أكون ماضيًا لقتال العدو، قولي لمن تلتقين به إن في مصر رجالًا قادرين على هزيمة العدو".

يلاحظ وجود عدد من التيمات التي تخللها السرد، وطغت على بنية الحدث، وكانت سمة من سمات تجليات السيرة الغيرية في الرواية:

تيمة القائد: تتبدى هذه التيمة في كل أفعال العميد "الرفاعي"، والتي تنم عن البطولة من أول طريقة حربه وإدارته لأي معركة حتى تفضيله حياة جنوده على حياته، ووجوده في استطلاع أي مهمة، ففي إحدى المرات تم كشفه من قبل العدو، فطلب منه الجنود أن يعودوا لأنهم أصبحوا مكشوفين، لكنه رفض قائلًا: "ومتى اتجهنا لعدو، وعدنا من منتصف الطريق" صـ455.

كما تتبدى سماته في طريقة احتوائه ومعاملته لجنوده، والدليل ما فعله مع أبو الفضل الصعيدي عندما اكتشف أنه لم يزر أهله لمدة عام بسبب انشغاله في الجبهة:

" منذ متى لم تر عم حسين؟

أكثر من سنة.

أليس هذا تقصيرًا منك؟

اعتبر نفسك في إجازة... مد يده إلى درج المكتب، سحب عددًا من الأوراق المالية.

خذ معك زيارة جيدة.. وعندما تعود بالفطير، احتفظ لي بنصيبي" صـ448.

فكانت أواصر الصداقة والمحبة والألفة هي المهيمنة على قيادته لكل مجموعته، ولكل من خدم معه، فكان دومًا يقول: إن من يواجهون الموت معًا، يجب أن يعيشوا حياتهم معًا. وكانت هذه إحدى سمات سيرته الغيرية.

كما كان يحرص على رعاية أهالي الجنود حتى بعد استشهادهم، مثلما فعل مع عبد الكريم "اقترح أن يذهب إلى والد الشهيد عبد الكريم، أول شهداء المجموعة فوق الضفة الشرقية بمنطقة جبل مريم أمام الإسماعيلية..... سأل عن أي حاجة لعم مراد يرغب في إنجازها، بعد تردد قال إنه لا يستطيع مفارقة الدكان، كما لا يعرف الإدارة المختصة بتجديد البطاقة العلاجية التي تذهب بها أم عبد الكريم لمستشفى غمرة العسكري.... قال الرفاعي: إذا لم أحضرها أنا إليك، سيأتي بها عبد المؤمن بعد غد" صـ452. فلم تنقطع صلته مع أفراده باستشهادهم، لكنها تستمر مع أسرهم، ليبقى الأثر.

وكما كان يشاركهم لحظاتهم العصيبة، كان ينخرط معهم في أفراحهم ومناسباتهم السعيدة، وما بين هذا وذلك، تتوطد أواصر الثقة بين الجنود وقائدهم، فيطيعونه بلا جدال "إن الثقة به غير محدودة، الثقة بالقائد لا تحتاج إلا لتجربة واحدة، ثم تتوطد وتعيش إلى الأبد" (ص474).

تيمة الشجاعة: تتأصل هذه التيمة في دم كل مقاتل مصري، وقد أوضح السرد ذلك في بنية النص، فلا يوجد مقاتل في المجموعة "39 قتال" يرتدي خوذة "هل نذهب إلى العدو محتمين

بالخوذات؟ صـ375، كما يتبدى من خلال طريقة اشتباكهم في الحرب "إن الالتحام يكون بالسلاح الأبيض، ليس بالقصف أو الطيران أو المعارك التصادمية للدبابات" صـ378. كما تلقي الأحداث بظلالها على تيمة الشجاعة التي اتسم بها القائد الرفاعي" لم يبح بتفاصيل، أكد أن المسئولية تقع عليه هو" صـ412.

تيمة الجبن: كما تعد الشجاعة تيمة يتصف بها مقاتلو الجيش المصري، يعد الجبن من سمات العدو الإسرائيلي "هذا العدو الدموي الجبان الذي يهرس جثة، ويطمر خندقًا بالجنازير يستهدف كل الأحبة" صـ421، وهذا ما يتضح جليًا في طريقة معاملتهم للأسرى المصريين في 67، والتي تطرق إليها السرد في الجزء الثاني من الرواية؛ مرحلة التكوين.

تيمة الموت: تعد هذه التيمة من التيمات التي تطغى على نصوص أدب الحرب، وهي محلقة في هذا النص بقوة خاصة أن الموت اختطف البطل الذي أفردت له فصول الرواية "بعد قليل سيواجه كل منهم الموت، والموت يحوم فوق الجماعة ثم ينقض فوق الإنسان الفرد" صـ369، وهنا يضرب السارد بعرض الحائط مقولة من لا يخاف الموت تخضع له الحياة، ففي الحرب تختلف الثوابت "من قال احرص على الموت، توهب لك الحياة" صـ400، فالموت في عقيدة الجيش المصري يعني الشهادة، وهو يحرص عليه، فإما النصر أو الشهادة.

تيمة الشهادة: هي النتيجة التي يسعى إليها كل مقاتل مصري، ففي كل مهمة يخرج فيها جندي من جنود القوات المسلحة لأداء مهمة في سبيل الوطن، يتمنى النصر أو الشهادة، ومع كل تضحية يسقط شهيد، والرفاعي كقائد مجموعته لا يترك الشهداء وينصرف، بل كان يعظم شهيده "صاح الرفاعي آمرًا، اسحب الشهداء".

ويحرص عليها كل فرد من أفراد المجموعة 39 قتال بشكل خاص، وأفراد الجيش المصري بشكل عام، فيعتبرون كل مهمة، وكأنها المهمة الأخيرة لهم "كلما خرج أبو الفضل إلى عملية يقول لهم: هذه هي المرة الأخيرة... ما يتمناه أن يذكره الرفاعي بأنه كان مقاتلًا لا يعوض، قبل استشهاده أحدث خسائر فادحة بالعدو، لم يذهب هدرًا، لن يعبر الدنيا هكذا، سيترك أثرًا لن ينساه الرجال" صـ458.

وكان الرفاعي يؤكد عليهم قبل أي عملية؛ إنهم يريدون أن يثبتوا للبلد وللعدو أن مصر أنجبت رجالًا يعرفون كيف يقاتلون ويستشهدون، كما كان يحرص دومًا على آداء التحية العسكرية للشهداء، ويرسم ويحفر أسماء من استشهدوا على لوحة مستطيلة لتخليد أسمائهم.

كما سلط السرد الضوء على تيمة البطولة التي تتجسد في الترفع عن امتهان الطرف الآخر في المعركة، فقد علَّم الرفاعي جنوده عقيدة الجيش المصري، وهو معاملة الأسرى كما تنص الشريعة الإسلامية، فلا يهينون أسيرًا حيًّا، ولا يلغمون جثة ميت، ولا يمثلون بجثة "ما بيننا وبين العدو دماء كثيرة، وأن نصف جيشه لا يكفي للثأر لأحد رجالي، ويجب أن يأخذوا من العدو أحسن ماعنده، لكن لا يجب أن يعاملوه بأسلوبه القذر" صـ497.

رحل الرفاعي بجسده، ورحل مثله الكثير من شهداء الوطن الأبرار، لتبقى مصر عزيزة أبية، محررة الأرض والكرامة، فكانت تلك الرسالة الأيديولوجية والتبليغية التي اختتم بها الكاتب عمله الأدبي.

- بناء الشخصيات الروائية، وعناصر السيرة الغيرية:

تعد رواية "الرفاعي" من النصوص السردية المشحونة بالشخصيات التي دائمًا ما كانت معينة للبطل بقدر ما كان يمثل الأيقونة التي تضئ حياتهم، وقد أثروا في أحداث السرد بشكل جلي، لدرجة دفعت المؤلف إلى تخصيص الفصل الأخير من النص ليتحدث عنهم وعن حيواتهم بعد استشهاد قائدهم "حِدة العقيد علاء التي توحي بأنه سيشترك فورًا في المعركة، وأبو الفضل الصعيدي، وملامحه التي تعكس إحساسه بالانتظار، مصطفى المتأهب دائمًا للحرب، أبو الحسن وشبح ابتسامة قد تظهر في أي لحظة. إن الرفاعي يرى تلك الروابط الخفية تشد كلًّا منهما الآخر إلى العبور لملاقاة الحرب، فيصبح كل منهما أكثر إحساسًا بالآخر"... صـ 369.

تنقسم الشخصيات في الرواية إلى شخصية رئيسية تتجلى بها عناصر السيرة الغيرية، وشخصيات ثانوية كان منظورها السردي هو الوجهة التي أطلعتنا على السيرة الغيرية لبطل العمل الأدبي.

عناصر السيرة الغيرية في الشخصية الرئيسية:

العميد أ.ح إبراهيم الرفاعي: الشخصية الرئيسية في العمل لأنه بطله، وعنصر التكوين في النص، فقد كتب جمال الغيطاني هذا النص ليخلد ويؤرخ شخصية الرفاعي، فاعتبر العمل سيرة غيرية، لما يتضمن من عناصر بناء لها.

أ- **التكوين**: يعد عنصر التكوين سمة من سمات السيرة، سواء أكانت سيرة ذاتية، أم غيرية، وهذا يجعلنا نتساءل: ما سنوات التكوين لدى الإنسان؟

يجيب عن هذا التساؤل عز الدين إسماعيل في سيرته الذاتية المختزلة التي كتبها في مجلة الهلال التي أفردت بابًا كاملًا تحت عنوان "التكوين" امتد عبر سنوات التسعينيات وبداية الألفينيات، فيقول: إن سنوات التكوين ليست هي السنوات التي عاشها المرء واعيًا بنفسه وغيره، ومن حوله، وبالأحداث والحياة الاجتماعية، وإنما هي تبدأ من سنوات الصغر وبناء الشخصية[255]، وعرفها محمود أمين العالم في مقاله بالباب نفسه "لازلت أسير فى الطريق العاصف الذى بدأته"[256] بأنها مزيج من الكينونة والصيرورة، في حين اعتبرها عبد القادر القط بأنها تكوين فكري. وقال عنها عبد العزيز حمودة إنها الجذور التي يتفرع منها الإنسان[257].

ترى الدراسة أن سنوات التكوين هي مراحل ومحطات الحياة كلها من نجاح، وإخفاق، وعثرات، ثم نجاح مرة أخرى.

وبتطبيق ذلك على رواية "الرفاعي" نجد أنها متحققة بكامل سماتها، فقد أفرد الكاتب فصلًا كاملا من الرواية عن تكوينه، وسميت الرواية على اسمه، فعلى الرغم من أن جذوره تمتد من محافظة الدقهلية، كونه من مواليد بلقاس، لكن كل بلد خدم بها، أخذت منه مقدارًا، وأضافت لتكوينه عاملًا،

---

[255] انظر، عز الدين اسماعيل، سنوات التكوين؛ الكتابة الجميلة فن شديد الصعوبة، مجلة الهلال، العدد رقم 2، ا فبراير 1995.

[256] انظر محمود أمين العالم، لازلت أسير في الطريق العاصف الذي بدأته، مجلة الهلال، تاريخ العدد 1 مايو 1993.

[257] انظر عبد العزيز حمودة، إنكار الذات أهم ما تعلمته من قريتي، مجلة الهلال، تاريخ العدد 1 ديسمبر 2001.

فقد وصفه السرد بأنه يرصد كل التفاصيل، لا يفلت منه أي جزء من الموقف، لا الملامح ولا نهاية مسارات الشظايا، ينتبه دومًا للخطر المباغت. النوم لديه مؤجل باستمرار. الكثير من طياري الهيلوكوبتر اعتبروا العمل معهم يميزه عن الآخرين، كانوا يسمون المهمات التي يقوم بها باسمه "قالوا له إن الطلعة اليوم رفاعية، ضحك وقال: هذه بداية جيدة للحرب" صـ383.

كما تعد البطولة، وسمات القائد الحقيقي من أهم عناصر تكوينه، فقد وصفه السرد بأنه يؤثر جنوده على نفسه، ويحرص دومًا على ألا يوترهم، والدليل الأول هو صمته وتحمله ألمًا شديدًا كاد يفتك بمعدته، على الرغم من إمكانية طلب إعطائه حقنة مسكنة، لكنه رفض حتى لا يشتتهم في أثناء المعركة "أهذا هو التوقيت المناسب؟ فليتأجل الألم حتى يصل برجاله إلى بر الأمان" صـ408.

كما وصفه السرد بأنه رجل جاء ليقاتل عن كل المواطنين المصريين في كل المحافظات التي خدم بها "جاء إلى الدنيا ليقاتل عن كل الذين مر بهم أو عرفهم، أو حاوروه في تلك القرى والمدن، عن كل من يعيشون في هذه المساحات التي طار فوقها بالهليوكوبتر وبالأنتينوف وبالأليوشن" صـ416.

كما جعل وصف خصاله وصفاته العسكرية على لسان أحد قادة الجيش المصري الذي قال: إنه ضابط شجاع، جسور، قلبه جامد، حصل على وسام النجمة العسكرية، وعلى ترقيتين استثنائيتين. يحفظ سيناء عن ظهر قلب، عندما تتوه دورية في الصحراء، فإن أفضل متعقب لها هو الرفاعي. وإنه يعرف المدن من أضوائها عندما تبدو للمحلق بالطائرة. وقال عنه أحد الضباط في هيئة الأركان: الرفاعي قلبه أطلس حي مصر.

ب-النشور:

أفرد السرد الجزء الثالث من الرواية عن الرفاعي الإنسان بعيون عائلته، وجنوده، وكل من تعامل معه، فكانت السيرة الغيرية من خلالهم، ومن منظورهم السردي.

فوصف السرد صفات الرفاعي الزوج والأب بعيون زوجته ونصفه الآخر" نادية" كما تناول السرد في هذه المرحلة قصة الحب التي جمعته بشريكة حياته، والصعوبات التي واجهتهم سويا بعد رفض أسرتها زواجهما في البداية.

ثم تحدث علاء، وأبو الفضل عنه وعن حيواتهم بدونه، فاعتبر علاء حياته بدونه تسير نحو المجهول، وأصبح أبو الفضل رحالة يرتحل من مدينة لأخرى ليبني أضرحة للرفاعي ويخلد اسمه، وبعد وفاة قائده أصبح هو الراوي الخارجي الذي ظل يخبر الناس في كل المدن المصرية التي رحل إليها عن الشهيد البطل الذي حارب عنهم وعن الجميع في مصر " في قنا أقام ضريحًا من الكلمات، ومزارًا لا يزار، وقال لمن قابلوه إنه لا يبغي مكانًا للمبيت، فالمجموعة كانت بيته، وآخر البيوت" صـ497.

- **الشخصيات الثانوية في رواية السيرة الغيرية:**

على الرغم من كون هذه الشخصيات ثانوية، فإنها ساهمت في بناء النص، وكأنها شخصيات أساسية، ربما لأنها حقيقية وشاهدة ومؤثرة في بنية القصة الحقيقية والخطاب الحكائي المكتوب، وفي نصوص السيرة الغيرية، تكون لتلك الشخصيات أدوار أساسية، كون المتلقي يرى بطل السيرة من منظورها السردي، كما أنها تدور في فلكه.

نادية – ليلى – سامح: أفراد أسرة الرفاعي الذين تحملوا غياب الأب، وحلت الأم محله، فكانت أبًا وأمًا وقت انشغاله بمهمة تحرير الوطن، وبعد استشهاده في سبيل تحريره "رفع سماعة التليفون، جاء صوت نادية هادئًا، اعتذر عن عودته، قال إنه سيتأخر قليلًا، قالت إنها ستنتظره... ذات يوم قالت إنها تعلمت معه الانتظار" صـ446. وصف السرد لحظة سماعها بخبر استشهاده أنها أصعب لحظة في عمرها "عرفت أنها ستعيش انتظارًا من نوع آخر لأنه انتظار بعيد المدى ومضن ومرهق للعمر" صـ478.

رأينا من منظورها السردي الرفاعي الزوج والأب "كان خفيف الظل والروح، أبا محبا وزوجا مخلصا... وطوال العمر القصير تحرك في البيت هادئًا بلا ضجيج، ولم يتكلم كثيرًا، وكان ظله خفيفا، ولم يعاند، ولم يضرب سامح، ولم ينهر ليلى، ولم تكن له طلبات، وإذا سألته عما يود أن يأكل، يقول لها: ما ستأكلينه أنت، وإذا احتدم النقاش، يقول لها: اخفضي صوتك، سيسمعك الجيران، وبعد رجوعه من ليالي القتال يدخل حجرة ليلى وسامح على أطراف أصابعه، ثم يميل ويقبلهما، ويأبى إزعاجهما" صـ480.

العقيد طبيب علاء: الذراع اليمنى للعميد إبراهيم الرفاعي، كان يعمل ضابطًا بالمخابرات منذ هزيمة 1967، وانضم إلى المجموعة 39 قتال في أثناء حرب الاستنزاف، كان يلح دومًا على الذهاب إلى الجبهة بعد 5يونيو بدلًا من استقبال التقارير والخطابات، والملفات التي تتضمن ما قالته الإذاعات المعادية، والصديقة "يعبر ويقاتل، وتساءل لأول مرة: ما جدوى عمله كطبيب والبلد تتدهور!" (ص429)، حصل على فرقة صاعقة، وفرقة غطس، وفرقة استطلاع "لشغفه بالقتال، وحبه للشقاوة يبدو أنه نسي الطب". يصف السرد علاقة الرفاعي وعلاء بالعلاقة الوطيدة المتينة "كأنه يعرف علاء منذ زمن". خصص السرد ست صفحات من مرحلة النشور عنه، وشعوره بالفقد بعد رحيل قائده، ليرى المتلقي الرفاعي من منظره السردي.

الأمر نفسه بالنسبة لـ"أبو الفضل الصعيدي": من مواليد الطليحات، مركز طهطا، عام 1944، بمجرد أن أتم السن القانونية للتطوع، قام بذلك على الفور، فالتحق بالجيش المصري عام 1963.

كان لا يرى في مصر إلا الصعايدة، فكان تصنيفه؛ إما صعايدة أو أجانب. لا يدع فرصة إلا وتحدث فيها عن الصعيد. بعد استشهاد قائده، ارتحل من بلد لأخرى لتخليد ذكراه، والتحدث عنه "في قرية الغنايم قبلي لف أبو الفضل، وفي البداري تحدث إلى الناس..وفي القطار طاف بركاب الدرجة الثالثة، وفي جهينة قضى يوما بسوق الاثنين، وفي مغاغة قضى يوما آخر بسوق الأربعاء، حدث الخلق عن الخروج مع الرفاعي.... وقال للفلاحين في حقول الأرز المغمورة بالمياه إن الرفاعي كان هادئًا، وبسيطًا، ونفسه حلوة، ولم يتعال على مخلوق، ولم يجرح إنسانًا بلفظ، ولم يخدش أذنًا بكلمة، وقال إنه كان قاسيًا فيما يتعلق بالقتال، يرفع الجزاء على الجندي، ويضعه في السجن ثم يستقصي أخباره من بعيد ليعرف ما إذا كان حبسه سيؤثر على نفسيته عند الخروج لملاقاة العدو، وفي أحد الأيام زعق لأحدهم لأن زرار قميصه مقطوع، قال إن من ينسى زرار قميصه مقطوعًا، سينسى تركيب كبسولة التفجير، هكذا يروح الجهد ويضيع" صـ496.

كما كان هناك الجاويش مصطفى: الوحيد الذي اختاره الرفاعي ليكون معه في المهمة الأولى، قبل أن يتعرف على بقية المجموعة، ويضمهم إليه، والقبطان وسام حافظ، والمساعد أبو الحسن، ومؤمن وزيتونة، وغيرهم الكثير من الرجال الذين خدموا مع الرفاعي، فعايشوه وعاشوا معه، وتأثروا به، وكانوا شاهدًا وجزءًا من سيرته الغيرية، ومنهم من كان راويًا لها.

بنية الزمن الفني:

يعد نص "الرفاعي" من النصوص المشحونة بالعلاقات الزمنية بمختلف أنماطها سواء أكان زمنًا فنيًّا، أم مرجعيًّا، أم نفسيًّا، وحتى زمن الساعة، كما تمتلئ بالاستغراقات الزمنية، وتلك العلاقات أدت بدورها إلى حراك في الأحداث التي لا تتكرر. اختار **عناوين زمنية** "اليوم الثالث عشر 6أكتوبر 1973الساعة 1530، اليوم الثاني عشر7 أكتوبر، 8 أكتوبر، 9 أكتوبر.. وهكذا"

تبدأ الرواية بعنوان زمني "العد التنازلي"، ليعلن عن أن انطلاق زمن السرد تزامن مع يوم المعركة في السادس من أكتوبر، بعد ذلك أخذ السرد في التداعي لكن للأمام ليصل إلى زمن استشهاد البطل في 19 أكتوبر1973، حتى وصل إلى الزمن صفر؛ أي لحظة الموت.

يُلاحظ اعتماد الراوي العليم على تقنية الاسترجاع لكشف الستار عن أحداث الواقعة في الثلاثة عشر يومًا منذ لحظة انطلاق المعركة والبطولة التي حققها الرفاعي، ومجموعته 39 قتال في السادس من أكتوبر وحتى التاسع عشر من الشهر نفسه، كما قام باسترجاع المهمات التي قام بها الرفاعي، وأفراد مجموعته في أثناء حرب الاستنزاف "الرفاعي الآن يتذكر الفلاحين، عند خروجه من المدينة ..آخر عبارات تبادلها مع جنوده.. يذكر الآن آخر اشتباك في صيف 1970" كأن الكاتب يتلاعب بالزمن، فيمزج بين الآنية وبين الأفعال التي تعبر عن الماضي، ويأخذ المتلقي في رحلة عبر آلة الزمن ويؤرجحه بين التزامن والاسترجاع والاستباق. وكأن الزمن هو العنصر الأساسي للبناء السردي فِي هذه الرِّوَايَة.

كما يعج النص بتقنيتي الوصف والمشهد الحواري اللتين تطيلان السرد، وتعملان على إبطاء وتيرة الزمن في بعض المواقف التي تستدعي ذلك ليستطيع الكاتب نقل الصورة بحرفية شديدة للمتلقي، وكأن المقطع السردي قد تحول لمشهد طبيعي يتلمسه القارئ، وذلك لأن الغيطاني قد عايش تلك المشاهد على الطبيعة، وأراد نقلها للمتلقي كما رآها، مثل وصف الكاتب لمشهد الطائرة وهي تقلع في طريقها لإحدى مهام المجموعة 39– قتال "يهتز الجسم المعدني في ثباته، فوق الأرض يبدأ ظل المروحة الرئيسية في الدوران، يضغط الطيار أزرارًا عديدة في اللوحة المزدحمة بالمؤشرات والعدادات..." صـ380.

كما اعتمد السارد بشكل كبير على المشهد الحواري الذي لا يقتصر على عبارات متبادلة بين القائد الرفاعي وجنوده، بل يصف لنا أجواء المعركة، وشكل الجبهة، وحال المقاتلين.

"ما يمكن قوله كثير لكن الألفاظ شحيحة، الرفاعي مطمئن الآن... يشير إلى الشاويش جاويش.

- هيا يا وحش...
- يحتوي بعينيه المطار والمنشآت والرجال، ونور أحمر يلتمع في مؤخرة طائرة تقف بعيدًا عن دشمتها الخرسانية...." صـ380، فكانت مشاهد حوارية تنطوي في داخلها على وصف سردي.

وأيضًا مشهد استشهاد الرفاعي، وهو المشهد الأصعب في الرواية "في قلب الانفجارات واللهب ظهر التاسع عشر من أكتوبر، انحنى فوق الصدر العريض الذي احتوى البلد ومن فيها سنين طويلة، ثم سكت من أجلها بعد أن خفق وخفق لها، عبثًا حاول التقاط أي إشارة مرسلة من القلب، الجسد سليم، اليدان تلامسان الخصر" صـ491،492، فوصف الراوي العليم مشهد الاستشهاد بحرفية شديدة لامست قلوب المتلقين الذين تابعوا بفضول شديد نهاية تلك الرواية التي خلدت بطلًا قلما يجود الزمان بمثله.

يلاحظ اعتماد الرواية على الزمن النفسي الحسي الذي يختلف من شخص لآخر، فيقف عنده الكاتب طويلًا، فما أصعب لحظات انتظار المجهول، لا سيما الموت الذي يكون الجندي على موعد أو لقاء معه في كل مرة يخرج لمهمة، ولا يعرف مصيره بعدها "في لحظة معينة من هذا الليل سيرسل القدر عشرات الشظايا، لا بد أن يوجعه، وأن يسدد الضربات الصحيحة، أن يحدث آثارًا لا يمحوها الزمن بسهولة.....كل شيء مدرك بالزمن" صـ381، ويتوافق الزمن النفسي مع آلية الاستغراق التي عدها جيرارجنيت عنصرًا من عناصر بناء الزمن في تطبيقاته على البنيوية، فالأبطال في أثناء انتظارهم الموت يستغرقون في لحظاتهم الآنية غير آبهين بالمستقبل القريب أو البعيد، فما بين انطلاق الرصاصة وحتى استقرارها في الجسد ثانية، يمر دهر على الطرف الذي يتلقاها في صدره، ولحظة على الذي يطلقها "مروق الطلقة بين الجندي والجندي، والألم الخاطف المركز السريع الذي ينتهي فجأة، ثم تنفذ الشظية إلى ما وراء الأذن".

و"في لحظات الاستغراق تفاجئه الفكر" صـ412، فدومًا يكون الاستغراق في لحظات تأمل الأبطال، ولاسيما فترات تواجدهم حيث وحداتهم بالصحراء.

وهناك أيضًا الزمن النفسي الذي سجنت به ليلى لحظة علمها بخبر استشهاد حبيبها وشريك حياتها "وعندما جاءها الخبر يوم الجمعة، حط على كتفيها ثقل بغيض، وتوقف الزمن في صمت باتر.. وبدا البيت عمرًا كاملًا" صـ478.

كما تتناول الرواية؛ زمن الساعة، ويعج به السرد بكثرة، وهو زمن متفق عليه من قبل الأبطال، فنجده رئيسيًّا في العمليات العسكرية، ففي علم استراتيجيات الحروب يمثل موعد المعركة عنصرًا هامًا "تعطيل ساعة واحدة من زمن الحرب شيء لا يستهان به" صـ412، تتوقف عليه نجاح المهمات، ومن الممكن أن تُلغى طبقًا له "وبعد ربع ساعة، الساعة 1530، الساعة الثانية وعشر دقائق...".

وهناك أيضا الزمن المرجعي "في صيف 1969؛ مرقت ثلاث طائرات ميج17 فوق مدفعية الهاون، 1970"

"6 أكتوبر 1973... حرب أكتوبر المجيدة"

"7، 8، 9 أكتوبر... معركة بلاعيم النفطية"

"19 أكتوبر 1973..يوم استشهاد الرفاعي"، فكل تلك الأزمنة المرجعية تاريخية، وتعج بها جميع روايات الحرب لأنها مواعيد وأزمنة ثابتة ومدونة في صفحات التاريخ.

<u>بنية المكان الروائي:</u>

يطغى البعد المكاني على أحداث رواية "الرفاعي"، ولم يقتصر المكان فقط على الأرض التي تدور فيها رحى الحرب، بل أيضًا الفضاء الذي كان مسيطرًا عليه أجواء النكسة في 67، وأجواء الإقدام في معارك الاستنزاف، وحالة الانتصار في أكتوبر 1973، والتي سيطرت على جميع المدن والمحافظات المصرية "الإسكندرية مثوى الذكريات، وتابوت صان الأيام الجميلة" صـ477، "الصعيد والوجه البحري، وكل المدن المحاذية للبحرين الأبيض والأحمر وكل القرى" ص494، ثم قارن السرد بين حال الصعيد الذي كان يسيطر عليه أجواء النكسة، والصعيد الذي كان فضاء لحرب

أكتوبر "اليوم للصعايدة، الصعيد كله يعيش في انتشار هذا اليوم، بعد الهزيمة قامت النيران كبئر بترول بلا قرار" صـ373، فمصر كلها كانت فضاءً للأحداث.

سيناء: قطعة غالية من أرض مصر، استولى عليها العدو الإسرائيلي في هزيمة 5 يونيو 1967، وفي سبيل استعادتها أعاد الجيش المصري بناء نفسه خلال حرب الاستنزاف، وقام فيها بعمليات نوعية استنزف بها قدرات العدو، ولذا سميت بحرب الاستنزاف، ثم قامت حرب أكتوبر فضحى أجدادنا بروحهم ودمائهم فداء لرملها، واستعدنا جزءًا كبيرًا منها في حرب6 أكتوبر 1973، ثم استعاد الرئيس الراحل أنور السادات البقية منها بالمعارك الدبلوماسية في معاهدتي كامب ديفيد 1979.

تمتاز رواية الرفاعي عن روايات الحرب التي تناولت حرب أكتوبر بأنها لم تتناول المكان بشكل عام، لكن الكاتب في نصه الأدبي حدد المناطق بها بشكل أدق، حيث كان ذلك هو عمل سلاح الصاعقة الذي ينتمي إليه البطل الرفاعي، كما تدرب فيها المحرر العسكري جمال الغيطاني، لذا فهو يحفظها جيدًا، فقام بذكر أماكن المهمات تفصيليًّا مثل: "منطقة لسان التمساح، شرم الشيخ، شاطئ شلاطيم الصخري".

"يستعيد أدق التفاصيل، لم ينس شيئًا، يلمس ذراع الطيار الأيمن المواجه له..الآن إيقاع الزمن أدق، يشير إلى أسفل.. سيلتقون بسيناء... ينظر إلى عقارب الساعة الفسفورية، يتوغلون داخل سيناء" صـ385، فكانت تضاريس سيناء محفورة في عقله، وكان الرفاعي من يرشد الطيارين إلى أماكن العمليات.

وكما كانت سيناء مكان استشهاد البطل، حيث احتضنت أرضها جسده الطاهر، ورويت رمالها بدمائه العطرة. كانت منطقة القناة مسرح العمليات التي يوجد بها العدو وتوجد القوات المصرية على الضفة الأخرى منها، وتحارب من أجل عبور الضفة الشرقية، واسترداد الأرض ورد الكرامة "يصر القادة على البقاء في الضفة الشرقية من القناة"

القاهرة: عاصمة مصر، والمركز الرئيسي لقيادة العمليات العسكرية، وعلى الرغم من ذلك يصفها السرد بأن عماراتها تبدو حديثة، وتاكسي أجرة باللونين الأبيض والأسود، وتوجد بها إعلانات سينما، وكأن البلد لا تحارب، ولا يقبع العدو في القناة على مقربة ساعة ونصف منها.

ترتبط القاهرة عند الرفاعي ببيته وحبيبته نادية التي كانت تنتظره في شرفتها يوميًّا الساعة الخامسة، وبعد أن أصبحت أم أولاده لم يختلف الأمر لأنهم سكنوا بها.

قارن السرد بين وضعها قبل حرب أكتوبر وبعد مرور الأيام الأولى للحرب، وخاصة في يوم 12أكتوبر 1973 "القاهرة كما اعتادوا لقاءها، لكنها تختلف كثيرًا هذه الأيام بعد عودتهم من ضفة القناة الشرقية، يصر قادة الوحدات على بقائهم" صـ414.

وعلى الرغم من ذلك لم تتمحور حياة الرفاعي في مدن القاهرة والقناة فقط، بل عدد الراوي المدن والأماكن التي مر عليها، وخدم بها طوال فترة خدمته في الجيش المصري "يود لو رحل إلى كل مدينة قضى بها زمنًا .. بلقاس، ملوي، أسيوط، الأقصر، أسوان، الإسكندرية، جبل الجلالة..." صـ415.

الإسكندرية: المكان الأول الذي عاش به البطل الرفاعي مع زوجته نادية عقب زواجهما، وأسسا بيتهما، فكانت ثمرة حبهم؛ سامح وليلى إبراهيم الرفاعي "الإسكندرية مثوى الذكريات، وتابوت صان الأيام الجميلة... وعندما جاءت معه الإسكندرية أول مرة في الزمن الأول، جاءت وجلة تحبه بعد أن نأت عن الأقارب الذي عارضوا، والأشقاء الذين رفضوا" صـ477. فكانت لهم ذكريات بها، ظلت تتذكرها نادية بعد وفاة زوجها وشهيد مصر.

حينما حدد ميخائيل باختين زمكان الطريق حيث "تتقاطع في نقطة زمانية ومكانية واحدة؛ الدروب الزمانية والمكانية لمختلف ألوان الناس، ممثلي كل الفئات والأوضاع والمعتقدات والقوميات والأعمار. هنا ممكن أن يلتقي مصادفة كل الذين تفصل بينهم عادة المرتبية الاجتماعية أو البعد

المكاني"[258] كأنه كان يستشرف الالتصاق الكلي بين الزمان والمكان الذي يتجسد في نواة رواية أدب الحرب التي تتخذ من المكان مسرحًا رئيسيًّا تدور في فضائه الأحداث على إيقاع الزمن.

فـ"لزمكان الطريق أبعاد متنوعة؛ البعد العياني المرتبط بمكان فعلي، وبُعد حياتي فعلي يكتسب علاقة جوهرية بالبطل ومصيره، والطريق التاريخي، وكلها استعارات متنوعة ومتعددة المستويات، لكن النابض الأساسي فيها جريان الزمن"[259].

ويُلاحظ أن كل أبعاد زمكان الطريق متحققة في رواية الرفاعي، فهناك بعد عياني يتمثل في طريق السفر بين القاهرة والسويس، والإسماعيلية، والإسكندرية، وكل المدن التي خدم فيها البطل.

وهناك البعد الحياتي الفعلي الذي تحكم بحياة الرفاعي وجنوده ومصير الشعب كله، وهو "طريق التحدي والنصر" الذي اختاروا أن يسيروا فيه، ذلك الطريق الواصل بين يونية67 وأكتوبر 73، الذي نقل مصر من حالة الانكسار والانهزام إلى حالة الثأر واسترداد الأرض.

وهناك الطريق التاريخي، حيث تناولت الرواية التغيرات التاريخية والطرق السياسية التي نحتها مصر بدءًا من فترة نكسة 1967، والسنوات الست الخاصة بحرب الاستنزاف والمعارك التي دارت بها، ورصدت الرواية بعضها، كما تضمن السرد الحكائي كيف استعدت مصر للحرب وانتصرت في 1973.

الصيغة السردية، وزاوية الرؤية (الراوي):

عند النظر في رواية "الرفاعي" نلاحظ صخب المفردات السردية التي تعكس جو المعركة، فكانت للجمل الفعلية اليد الأولى في صيغة الحكاية، التي تفيد الاستمرار الدائم في الحركة "فجروا مخازن الذخيرة– شوهد اللهب من مسافات– أجرى اتصالات لضم المقاتلين– كان يراقب البحر– يريد أن ينجز العظيم من الأمور قبل استشهاده– يصغوا إلى همس العدو– لن يصلوا إلى العدو عبر فراغ–

[258] ميخائيل باختين، أشكال الزمان والمكان في الرواية، ت: يوسف حلاق، دمشق، منشورات وزارة الثقافة، 1990، ص221.

[259] حسين حمودة، في غياب الحديقة، القاهرة، مكتبة مدبولي، 2007،ص67، ص68.

لا يمكن رؤيته نائمًا– تعالوا نرجع بالرفاعي"، في حين استخدم الجمل الاسمية بعد الاستشهاد عندما سكن جسد البطل، وتوقف عن الحركة "الجسد سليم– اليدان تلامسان الخصر".

كما اعتمد الراوي على السرد المتقطع؛ فالحكاية لم ترو بترتيبها الحقيقي، لكن السارد الذي كان نائبًا عن الكاتب (المسافة)– قام بالبدء في الجزء الأول الذي جاء تحت عنوان "العد التنازلي" بنهاية الحدث، وسرد قصة استشهاد الرفاعي، ثم قام في الجزء الثاني الذي كان بعنوان "التكوين" بالرجوع إلى بدايات الشهيد الرفاعي، وتكوينه، وتكوين مجموعته "39– قتال"، ولذا كان السرد متقطعًا، وذا متن حكائي لأن الكاتب رتَّب الأحداث ترتيبًا مختلفًا عن القصة الحقيقية، ولا علاقة له بالتسلسل المنطقي لها في الواقع.

كما يلاحظ أن التعددية الصيغية كانت باستخدام ضمير الغائب (هو) العائد على البطل الرفاعي (زعق الرفاعي– صاح من بعيد– لم يتوقف– يوشك الرفاعي– يبدي ابتسامة– قال إن الوضع يختلف اليوم– يحمل حياته كلها على كتفيه– سقط الرفاعي)، وقلما لجأ الراوي إلى استخدام ضمائر أخرى، إلا في مواضع تحدث الشهيد إلى أحد جنوده، فاستخدم ضمير المخاطب (أنت) "قال الرفاعي لعلاء: من يرك في أثناء الاشتباك، لا يتخيل أنك طبيب، وطبيب أعصاب بالذات" صـ378.

فكانت هذه سمة من سمات السيرة الغيرية التي يتحدث فيها الكاتب عن شخصية واحدة طوال السرد الخطابي للعمل الروائي، ويكون لها دور البطولة، وتنسج الأحداث حولها، ولذا كان خطاب الأقوال خطابًا مرويًّا قام به السارد.

كما يلاحظ أن زاوية الرؤية؛ أي الراوي، كان راويًا عليمًا يرى الأحداث من فوق، فاستطاع أن يتوغل داخل نفوس الشخصيات الروائية، ويعرف فيم كانت تفكر في أثناء المعركة، وهي تنتظر الشهادة، أو تحقق النصر، وعلى الرغم من ذلك جاء التبئير؛ أي تقليص حقل الرؤية عند الراوي " تبئيرًا داخليًّا"، وهذا عكس المتعارف في الدراسات النقدية والسردية؛ حيث إن الراوي حينما تكون رؤيته من الخلف، أي كلي الحضور، يكون التبئير "صفرًا"؛ حيث إنه لا يقوم بالتركيز مع شخصية بعينها، ولا يبئر حكيه، بل هو عين الطائر الذي يرى جميع الشخصيات من فوق، لكن نجد أن هذه الرواية قد خالفت ذلك، لأن الحدث الفني يدور كله في محراب البطل الرفاعي وعن سيرته،

وحقل الرؤية وزاويتها من خلاله، فقام جمال الغيطاني بكسر تابوهات الدراسات النقدية من خلال تغيير المتعارف فيما يخص عنصر التبئير الذي يندرج تحت الصيغة السردية في تطبيقات جيرار جنيت على البنيوية.

لاحظت الدراسة تعدد وجهات المنظور السردي عبر أجزائها؛ ففي الجزء الأول كانت الأحداث من منظور بطل الرواية العقيد إبراهيم الرفاعي، فالكاتب جمال الغيطاني لأنه كان شاهدًا على الأحداث ومعايشًا لها، حكاها من زاوية منظوره "قال إن اليوم يومهم.. وقال إن الشغل الحقيقي يبدأ.. وقال إن الوضع يختلف الآن...وأشار إلى نموذج مجسم من الجلد".

والأمر نفسه في الجزء الثاني من العمل الأدبي الذي جاء تحت عنوان" التكوين"، فقد ظل المنظور السردي واحدًا في الجزأين؛ الأول والثاني، أما في الثالث مرحلة النشور فتتعدد زوايا المنظور السردي، فنرى الرفاعي بعين كل شخصية من شخصيات النص بدءًا من نادية، ثم علاء، ثم أبو الفضل الصعيدي الذي أصبح راويًا خارجيًّا بعد موت قائده، يحكي قصته وسيرته الغيرية ويؤرخها عند كل من يقابله "في الزقازيق حدث الناس عن الرفاعي.. وفي قرية دراو قرب أسوان سأله الفلاحون بعد أن بدأ كلامه: من هو الرفاعي؟ فقال إنه من الناس الذين لا يجيئون مرتين في الزمن الواحد.. وفي كفر صقر والسنبلاوين، قال للفلاحين إن الرفاعي كان هادئًا وبسيطًا، ونفسه حلوة، لم يتعال على مخلوق، ولم يجرح إنسانًا بلفظ، ولم يخدش أذنا بكلمة..." (صـ495-496).

لجأ الغيطاني في نصه الأدبي إلى لغة التواصل المستخدمة في الجبهة، مثل الساعة 1530، وهي الساعة الثالثة والنصف عصرًا في الحياة المدنية، فالساعة بتوقيت الجيش لها استراتيجية مغايرة، فاليوم لديهم يبدأ من الساعة 2400 أو 00أي الساعة 12 منتصف الليل، أما الساعة 1200 تعني الساعة الثانية عشر ظهرًا، وهكذا حتى تصبح الساعة 2300 أي الحادية عشر ليلًا.

كما يلاحظ طغيان لغة الصحافة على مفردات السرد، وهي اللغة التوصيلية، وكان السبب في ذلك هو مهنة الكاتب الصحفية، ولكن على الرغم من عمل جمال الغيطاني صحفيًّا ومراسلًا عسكريًّا، لكنه لم يجعل كل شخصيات روايته تتفاعل مع الصحافة، ومنهم الطبيب علاء الذي لم يوافق على عمل لقاءات صحفية بعد استشهاد الرفاعي "عندما اتصل به أحد الصحفيين في الظهيرة، وطلب منه أن يقابله ليحدثه عن الرفاعي اعتذر، قال الصحفي إنه سيعد سبع حلقات

إذاعية عن الرفاعي، لم يسمح بإطالة الحديث، إنما أنهاه في جفاء، ماذا يريدون أن يفعلوا بالرفاعي؟ ماذا يريدون أن يفعلوا بالرفاعي؟ حلقات إذاعية؟ رواية؟ قصة؟ فيلم سينمائي؟ لهذا العمر كله، لو اتصل أحد بهم مرة سيصيح، يا لصوص كنوز المقابر..." صـ491، فعلى الرغم من أن الغيطاني أرَّخ لسيرة الرفاعي في نصه الأدبي، فإنه جعل إحدى شخصيات نصه ترفض ذلك، بل ويسخر منها أيضًا، وهذه مفارقة تثير التساؤل، لكن ربما كان هذا رأي الشخصية الحقيقية التي استقى منها الغيطاني حديثه، فنقلها كما تراءى لصاحبها للأمانة الصحفية والأخلاقية.

وكعادة روايات الحرب التي تتسم بوجود مفردات المعركة، لاحظت الدراسة طغيان هذه المفردات، فضلًا عن وجود المصطلحات العسكرية التي لا يستخدمها إلا المقاتل الذي عاش في الجبهة (الهاون 160 ملي- خنادق الجنود- الطيران الإسرائيلي- مواقع الصواريخ- موقع مدمر- مطارات خفية- عربة استطلاع- الدفاع الجوي- صواريخ الكاتيوشا- الساعة 1530- المعارك التصادمية بالدبابات- غطاء التمويه.....). وتُرجع الدراسة سبب كثرة استخدام تلك المفردات والمصطلحات في الرواية محل الدراسة عن مثيلاتها من روايات أدب الحرب إلى أن هذا النص تحديدًا رصد معارك عسكرية مصيرية مثل حرب الاستنزاف وحرب 6 أكتوبر 1973، وأيضا هزيمة يونيو 67، فأراد الكاتب الذي عاش مدة طويلة على الجبهة المصرية، وعايش المجموعة (39 قتال) في عملياتهم العسكرية، أن يجعل المتلقي في قلب المعركة، وينقله هو إلى الجبهة، لا أن ينقل فضاء الجبهة له، ومن ثم احتفظ الكاتب بمفردات المعركة في روايته للسيرة الغيرية عن قائد مصري مثل الشهيد أ.ح إبراهيم الرفاعي.

خاتمة

خلصت الدراسة إلى أن رواية "الرفاعي" التي كتبها جمال الغيطاني هي رواية سيرة غيرية، حيث تتجسد فيها كل عناصرها. وقد اختار الكاتب شخصية "العقيد إبراهيم الرفاعي" كونه بطلًا، وقائدًا من أهم قادة نصر أكتوبر 1973، وقدوة لكل جندي في الجيش المصري، وأيقونة لجميع أفراد الشعب المصري.

اختار الرفاعي أن يموت شهيدًا ليعيش الوطن، وتتحرر أرضه، وتعلو رايته مرة أخرى بعد هزيمة 5 يونيو 1967، فاستحق أن تروى سيرته، ويخلدها الأدب لا سيما أدب الحرب، ليظل

شاهدًا على أسطورة قلمّا يجود الزمان بمثلها سواء أكانت على المستوى الوطني، أم الاجتماعي، أم الإنساني.

اقترحت الدراسة مفهومًا مغايرًا لأدب الحرب وفقًا للزمن: إما أنه الأدب الذي كُتب في زمن الحرب نفسه، مثل: رواية "الرفاعي" التي كتبها جمال الغيطاني عام 1976، أو أنه الأدب الذي كُتب عقب الحروب، بعد أن استقرت الأحداث واتضحت النتائج، أو الأدب الذي يتنبأ بالحرب لاستعادة الحق المسلوب، ويشجع الساسة ومتخذي القرار، وهذا النوع شائع في الثورات.

طبقت الدراسة عناصر السيرة الغيرية على رواية "الرفاعي" عن طريق عدة مستويات: البنية الفنية للحدث الروائي، وبناء الشخصيات الروائية وعناصر السيرة الغيرية، بنية الزمن الفني، بنية المكان الروائي، الصيغة السردية وزاوية الرؤية وما تتضمنه من: صيغة الحكاية، السرد المتقطع، المسافة، التعددية الصيغية، خطاب الأقوال، التبئير، المنظور السردي، مفردات السرد، فخلصت إلى تجسد تقنياتها في السرد الخطابي من خلال: التكوين، والنشور.

توصلت الدراسة إلى وجود عدد من التيمات التي تخللها السرد، وطغت على البنية المركزية للحدث، وكانت سمة من سمات تجليات السيرة الغيرية في "الرفاعي" وهي: (تيمة القائد، تيمة الشجاعة، تيمة الموت، تيمة الشهادة، وتيمة البطولة).

انتهت الدراسة إلى أن عناصر السيرة الغيرية تؤثر على الشخصيات الروائية في نصوص أدب الحرب، وتقسمها إلى أقسام مغايرة عن الأنواع التقليدية المتعارف عليها في الدراسات النقدية. ففي نصوص أدب الحرب كل الشخصيات رئيسية، لأن الشعوب هي البطل الحقيقي في الحروب الفعلية، وفي الخطابات السردية تكون هي المحفز لأبطال النصوص.

وبناء على ذلك قسمت الدراسة الشخصيات في الرواية–محل الدراسة إلى شخصية رئيسية تتجلى بها عناصر السيرة الغيرية، وشخصيات ثانوية تدور في محراب الشخصية الرئيسية، ويكون منظورها السردي هو الوجهة التي أطلعت المتلقي على السيرة الغيرية لبطل العمل الأدبي.

ارتأت الدراسة تحقق الوظائف الأيديولوجية التي تكمن في رؤية الكاتب باعتباره جزءًا لا يتجزأ من واقع الحروب المعيشة، والوظيفة التبليغية التي تتلخص في الرسالة الجوهرية التي يريد أن

يرسلها الكاتب للمتلقي عبر نصه الأدبي، والوظيفة التوثيقية التي تبرز في المنحنى التوثيقي الذي يبرزه الكاتب ويوثقه من خلال تواريخ وأزمنة لمعارك وحروب حقيقية حدثت في القصة الواقعية، فيكون الزمن الداخلي للسرد موازيًا أو لاحقًا لزمن القصة، ودالًا عليها. وهذا بدوره يؤكد على الدرس الأدبي المغاير في نصوص أدب الحرب.

قائمة بأهم المصادر والمراجع:

أولًا: المصادر

- جمال الغيطاني، رواية الرفاعي، الأعمال الكاملة، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، المجلد الثاني، 1991.

ثانيًا: المراجع

- أحمد عبد العزيز، قضايا المشرق العربي عند الشعراء الإسبان، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1989.
- السيد نجم، أدب الحرب، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، 1995
- جابر عصفور، زمن الرواية، القاهرة، دار المدى للثقافة والنشر، 1999.
- جيرار جنيت، خطاب الحكاية، ترجمة محمد المعتصم وآخرين، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ط2، 1997.
- عبد اللطيف الحديدي، فن السيرة بين الذاتية والغيرية في ضوء النقد الحديث، القاهرة، دار السعادة ط1،1996.
- فيليب لوجون، السيرة الذاتية؛ الميثاق والتاريخ الأدبي، ت: عمر حلي، بيروت، المركز الثقافي العربي، ط1، 1994
- ممدوح النابي، رواية السيرة الذاتية، القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة،2009.
- يحيى إبراهيم، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، مكتبة النهضة المصرية، 1975.

ثالثًا: المقالات والدوريات العلمية المعتمدة

- سيد البحراوي، النقاد يحددون مواصفات كتابة السيرة الذاتية، حوار أجراه: حسن عبد الموجود، أخبار الأدب، 30 يوليو 2003.

- عبد العزيز حمودة، إنكار الذات أهم ما تعلمته من قريتى، مجلة الهلال، تاريخ العدد 1 ديسمبر 2001.
- عبد المجيد البغدادي، فن السيرة الذاتية وأنواعها في الأدب العربي، مجلة القسم العربي، جامعة بنجاب، باكستان، العدد الثالث والعشرون،2016.
- عز الدين اسماعيل، سنوات التكوين؛ الكتابة الجميلة فن شديد الصعوبة، مجلة الهلال، العدد رقم 2، ا فبراير 1995.
- محمود أمين العالم، لازلت أسـير فى الطريق العاصـف الذي بدأته، مجلة الهلال، تاريخ العدد 1 مايو 1993.